

الحق العلمي في الاسلام

محمد يسف

يمكن على ضوء استقراء مضامين الآيات القرآنية الكريمة. والأحاديث النبوية الشريفة، وأقوال السلف من أئمتنا الاعلام، أن أحصر موضوع «حق العلم في الاسلام» في المحاور الآتية :

الطرح الجاد لقضية المعرفة

إن من يقف على النصوص الكثيرة التي عالجت قضية المعرفة، قرآنية كانت أو حديثية، لا يسعه إلا أن يعترف بالحيز الواسع الذي أفردته الاسلام لهذا الموضوع الحيوي الهام، ولعل الاسلام هو أول دين يقف من العلم هذا الموقف الايجابي فيما نعلم، إذ في ظله خطى خطواته العملاقة في اكتشاف أستار المجهول، كما أنه حسم قضية الصراع بين العقل والدين، ومجد العقل وجعله مناط انسانية الانسان، ان تعطل أو جمد مسخت هذه الانسانية وهبطت الى مادون مستوى الدواب العجماء ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾⁽¹⁾، ﴿أَمْ تَحْسِبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾⁽²⁾.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾⁽³⁾.

(1) الانفال، 22.

(2) الفرقان، 44.

(3) الاعراف، 179.

ومع نزول أول آية من كتاب ربنا عز وجل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾⁽⁴⁾ بدأت مسيرة العلم والحضارة مع الدين جنباً إلى جنب.

إن الحديث عن القلم : (سورة العلق) و (سورة القلم : ن، والقلم) والقسم به وبأدوات كتابة العلم وتدوينه في (سورة ن اوفي سورة فاطر)، أقول : إن الحديث عن قضية العلم والمعرفة يمثل هذا اللاحاح في بيئة أمية، يعتبر ظاهرة لافتة، وإشعاراً صادقا بأن تحولا عميقا في المفاهيم والتصورات وشيك الوقوع.

ولعل حديث العلم هذا هو أحد أوجه الغرابة في الدين التي يشير إليها الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة والنسائي عن ابن مسعود، وابن ماجه عنهما وعن انس وهو أن النبي ﷺ قال : « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوى للغرباء » فأى غرابة أشد من أن يجري حديث القراءة والقلم والكتابة والعلم في بيئة أمية عدد القارئ والكاتبين فيها في أحسن أحوالها وأرقى حواضرها لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة.

العلم مناط انسانية الانسان

يتبين ذلك في قصة خلق آدم « في سورة البقرة » : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ : ابْغُثُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ : يَا آدَمُ ابْنِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فَلَمَّا أَبْأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ، إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا...﴾⁽⁵⁾.

ذكر سبحانه وتعالى في هذه الايات، رده على الملائكة الذين تعجبوا، كيف يجعل في الارض خليفة له، من شأنه سفك الدماء والافساد في الارض، بأن الانسان وإن كان من بعض اخلاقه ما ذكرته الملائكة — الا أن هذه الخصائص يشترك فيها كثير من الحيوانات ولكن الميزة الاولى التي ينفرد بها الانسان هي : «استعداده للعلم»

(4) العلق، 1-5.

(5) البقرة، 31-33.

ومن أجلها استحق الخلافة في الارض والسيطرة عليها، واستحق أن تخضع له أكرم مخلوقات الله وهم الملائكة فأمرهم بالسجود لآدم بعد أن أظهر لهم ميزته عليهم بالعلم.

وفي هذا السياق ورد تفضيل العالم على غيره بمن فيهم الشهداء الذين جادوا بأرواحهم فداء للقيم، وذودا عن الوجود المعنوي للامة «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء»⁽⁶⁾ والانتقطاع للعلم والتعبد به تعلما وتعلما، تدريسا وتأليفا بحثا وتنقيبا أفضل من الانتقطاع للعبادة، على ما فيها من فضل القرى والوقوف بين يدي الله في الصلاة الخاشعة والحضور الوجداني، وفي هذا الصدد يقول رسول الله ﷺ : «فضل العلم خير من فضل العبادة وملاك الأمر الورع»⁽⁷⁾ ويقول : «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»⁽⁸⁾ ويقول : «يبعث الله العالم والعابد فيقال للعابد : أدخل الجنة، ويقال للعالم : اشفع للناس كما أحسنت أدبهم»⁽⁹⁾.

وعلى هذا المستوى يخرج حديث : «العالم والمتعلم شريكان في الأجر، ولا خير في سائر الناس بعد»⁽¹⁰⁾ وقول ابن مسعود رضي الله عنه : «اغد عالما أو متعلما ولا تغد بين ذلك»⁽¹¹⁾، وقول علي رضي الله عنه : «الناس ثلاثة : فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، والباقي همج رعاع اتباع كل ناعق»⁽¹²⁾.

وسئل عبد الله بن المبارك : من الناس ؟ فقال : هم العلماء.

قال الغزالي — رحمه الله — في شرح ذلك : «لم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هي العلم، فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله وليس ذلك بقوة شخصه فإن الجمل أقوى منه، ولا بعظمته فإن الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطناً منه، ولا ليجامع فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه، بل لم يخلق الا للعلم»⁽¹³⁾.

(6) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم»

(7) رواه البزار بإسناد حسن، والطبراني في «الوسط» والحاكم وابن عبد البر في «جامع بيان العلم».

(8) أخرجه الترمذي وابن ماجه والبيهقي وابن البر من رواية عبد الله بن عباس.

(9) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم.

(10) المصدر السابق

(11) نفسه

(12) المصدر نفسه

(13) «الاحياء» 1 : 7.

الاشادة بالعلماء

في كلام ربنا الكريم وسنة نبينا الأمين وأقوال أئمتنا الأبرار من الاشادة والتنويه بأهل العلم وحملته ما يملأ أسفاراً ذوات عدد، لا يتسع المجال لعرضها، حسبي منها قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾⁽¹⁴⁾، إذ قرن الحق سبحانه في هذه الآية شهادة العلماء بوحدانيتها بشهادته وشهادة ملائكته وفي ذلك من التكريم والتشريف مالا يخفى.

وقوله عز من قائل: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾⁽¹⁵⁾ وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾⁽¹⁶⁾، حيث قصر الخشية من الله على العلماء لأنهم بما يتفكرون في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار، يؤمنون أن لا شيء من ذلك يمكن أن يسير بتلقائية عشواء أو يكون عبثاً باطلاً ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾. وقوله لا إله إلا هو: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾⁽¹⁷⁾، وفي هذه الآية جعل سبحانه إدراك الخطاب الالهي الى الخلق من خلال ما يهدي اليه النظر السليم، قاصراً على أهل البصر من العلماء.

وقول الرسول الأكرم ﷺ: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»⁽¹⁸⁾ ومعلوم أن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا ديناراً، وإنما ورثوا العلم والحكمة، والأنبياء والرسول هم الذروة العليا في الكمال البشري وأن أولى الناس بالانبياء كما قال علي رضي الله عنه: اعلمهم بما جاءوا به، وكان يتلو هذه الآيات: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾⁽¹⁹⁾.

وعن نافع بن عبد الحارث، أنه لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعسفان، وكان عمر قد استعمله على ملكه، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟

(14) آل عمران، 18.

(15) المجادلة، 11.

(16) فاطر، 28.

(17) العنكبوت، 43.

(18) رواه ابن داود والترمذي.

(19) (آل عمران، 68) والاثر رواه اللالكائي عن أبي الطفيل.

قال : استخلفت عليهم ابن ابري، قال : وما ابن ابري ؟ قال : مولى من موالينا، فقال عمر : استخلفت عليهم مولى : ؟ فقال : إنه قارىء لكتاب الله عز وجل عالم بالفرائض قاضي : فقال عمر رضي الله عنه : أما أن نبيكم ﷺ قد قال : «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين»⁽²⁰⁾.

وتعليق سيدنا عمر رضي الله عنه واضح الدلالة في أن العلم نسب الرجل وحسبه وماله وأصله.

وجوب طلب العلم وتحصيله

قال تعالى : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽²¹⁾ والمراد بالذكر في الآية، العلم في تفسير الجمهور، بدليل عجز الآية : ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ لأن أمر من لا يعلم، أن يسأل عما لا يعلم، لا يكون الا بالسؤال من أهل العلم وهم العلماء. وفي الحديث الصحيح : «طلب العلم فريضة على كل مسلم»⁽²²⁾.

ويدخل في وجوب الطلب التماسه في الآفاق عن طريق الرحلة، وتحمل مشاق السفر وأعباءه، ولقد أخذت الرحلة في طلب العلم حيزا مهما في تراث أمتنا العلمي وتاريخها الفكري وأفردها بعضهم بالتصنيف، كالخطيب البغدادي⁽²³⁾ وحرصوا على ذكرها في تحليتهم.

وأصلها في كتاب الله عز وجل : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ روى الخطيب البغدادي أن حماد بن زيد سئل هل ذكر الله تعالى أصحاب الحديث في القرآن ؟ فقال : نعم، ثم نعم قال للسائل ألم تسمع الى قوله تعالى ؟ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ «فهذا في كل من رحل في طلب العلم والفقهاء، ورجع به الى من وراءه فعلمه إياه»⁽²⁴⁾.

(20) أخرجه الامام أحمد في المسند ومسلم في صحيحه وابن ماجه في سننه عن الطفيل عامر بن واثله.

(21) النحل : 43

(22) رواه البيهقي وابن عبد البرقال السلوي في «المقاصد الحسنة» : «قد الحق بعض المصنفين بآخر هذا الحديث» ومسلمة وليس لها ذكر في شيء من طرقه وإن كان معناه صحيحا.

(23) «الرحلة في طلب الحديث»

(24) المرجع السابق، 87.

ولعل أول من رحل في طلب العلم نبي مرسل.

وقد أشار القرآن الكريم الى رحلة نبي الله موسى في طلب العلم، عندما اطلعه الله على أن الخضر أعلم منه فرحل اليه، وحكى القرآن عنه قوله: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتُ رُشْدًا﴾ (25).

وفي هذا السياق، روى ابن عباس، قال: حدثنا: أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ: أن موسى عليه السلام قام في بني اسرائيل خطيباً، فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه، حيث لم يرد العلم اليه، فقال: «عبد لي عند مجمع البحرين هو أعلم منك» الى آخر قصة رحيل موسى في طلب العلم.

وعن أنس بن مالك قال: «قال رسول الله ﷺ: «اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم».

ورحل أصحاب رسول الله ﷺ مسيرة شهر في تحصيل حديث واحد. وعن الشعبي قال: «لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام الى أقصى اليمن فحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبله من عمره رایت أن سفره لا يضيع» (26).

وعن قيس بن كثير قال: «قدم رجل من المدينة الى أبي الدرداء — رضي الله عنه — وهو بدمشق قال: ما أقدمك؟ قال: حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ قال: اما قدمت لتجارة، قال: لا، قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا، قال: ما قدمت الا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم، قال: أبشر فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سلك طريقاً يطلب فيه العلم سلك الله به طريقاً الى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السماوات والارض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء هم ورثة الأنبياء لم يرثوا درهما ولا دينارا وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» (27).

هذه التوجيهات ألهمت حماس الطلاب فانطلقوا يجوبون أرض الاسلام من أقصى المغرب الى أقصى المشرق. إذ كانت ديار الاسلام عبارة عن مدرسة بلا حدود تستقبل

(25) سورة الكهف، 88.

(26) «الرحلة في طلب الحديث»، 96.

(27) رواه أحمد في المسند.

طلاب العلم أيا كان موقعهم لا يُسأل طالبا لعلم عن موطنه وبلده، ولا عن قومه وعشيرته، ولا عن حسبه ونسبه ولكنه يتلقى التعلم المجاني ومعه المأوى والغذاء في الأكثر الغالب.

إجبارية التعلم والتعليم

لم يقف الأمر عند حد التوجيهات والوصايا والأوامر الأخلاقية التي يبقى أمر تنفيذها والالتزام بها موكولا الى ضمير الأفراد ودرجة تقواهم، ولكنه تجاوز هذا النطاق الى الوجوب الالزامي الذي يتعرض من يخل به الى جزاء دنيوي وعقوبة عاجلة يحددها أولياء أمور المسلمين.

فعن عياض الجاشعي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في خطبة خطبها : «إن الله عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا»⁽²⁸⁾.

وعن ابن عباس رضي الله عنه عنهما : عن النبي ﷺ أنه قال : «علموا وبشروا ولا تعسروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت»⁽²⁹⁾.

وعن ايزى الخزاعي والد عبد الرحمن رضي الله عنه عنهما، قال : «خطب رسول الله ﷺ ذات يوم، فأثنى على طوائف من المسلمين خيرا، ثم قال : ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يفطنونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتفطنون والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفطنونهم ويفقهونهم ويأمرونهم وينهونهم، ولتعلمن قوم من جيرانهم، ويتفطنون، ويتفقهون، أو لَعَاجَلَتُهُمُ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ، فَدَخَلَ بَيْتَهُ، فَقَالَ قَوْمٌ، مَنْ تَرَوْنِي عَنِي بِهَؤُلَاءِ؟ فَقَالُوا : نَرَاهُ عَنِ الْأَشْعَرِيِّينَ، هُمْ قَوْمٌ فَقَهَاءٌ وَلَهُمْ جِيرَانٌ جُهَلَاءٌ، جَفَاءَةٌ مِنْ أَهْلِ الْمِيَاءِ وَالْأَعْرَابِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الْأَشْعَرِيِّينَ، فَأَتُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ قَوْمًا بَخِيرَ وَذَكَرْتَنَا بُشْرًا، فَمَا بَالُنَا؟ فَقَالَ : لِيَعْلَمَنَّ قَوْمٌ جِيرَانَهُمْ وَلِيَفْقَهُهُمْ وَلِيُعْظَمَهُمْ وَلِيَأْمُرَهُمْ، وَلِيَنْهَوْهُمْ، وَلِيَتَعْلَمَنَّ قَوْمٌ مِنْ جِيرَانِهِمْ، وَيَتَعْظُونَ وَيَتَفَقَّهُونَ أَوْ لَعَاجَلَتُهُمُ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَنْفَطَنَ غَيْرُنَا؟ فَأَعَادَ قَوْلَهُ، وَأَعَادُوا قَوْلَهُمْ أَنْفَطَنَ غَيْرُنَا؟ فَقَالَ ذَلِكَ أَيْضًا : أَمَهَلْنَا سَنَةً، فَأَمَهَلَهُمْ سَنَةً لِيَفْقَهُوهُمْ وَيَعْلَمُوهُمْ،

(28) رواه أحمد في المسند.

(29) عينه.

ويفطنوههم، ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ كانوا لا يتناهوا عن منكر فعلوه، ليس ما كانوا يفعلون ﴿(30)﴾.

ويستحق منا هذا الحديث أن نقف معه قليلا : لاستخلاص بعض ما تضمنه من حقائق هامة :

- (1) أن رسول الله ﷺ رفض أن يقر قوما على جهالتهم، وهم بإزاء قوم متعلمين.
- (2) اعتبر بقاء الجاهلين على جهلهم، وامتناع المتعلمين عن تعليمهم، عصيانا لأوامر الشرع.
- (3) اعتبر أيضا أن ذلك عدوانا على المجتمع ومنكرا يوجب اللعنة والعذاب.
- (4) أعلن الحرب على الفريقين وهددهم بالعقوبة في الدنيا إن لم يبادروا إلى التعلم والتعليم.
- (5) أعطاهم مهلة عام واحد للقضاء على آثار الجهالة في المجتمع.
- (6) ونشير إلى أن هذه الواقعة وإن كانت قد وردت بشأن الأشعرين العلماء، وجيرانهم الجهلاء، فإن الرسول ﷺ أعلن المبدأ بصفة عامة، ولم يخص الأشعرين بها بدليل أن الأشعرين عندما جاءوا يسألونه عن سر تخصيصهم بهذا الإنكار، كما فهم الناس، لم يقل لهم : أنتم المرادون بذلك، ولكنه أعاد خطابه العام ثلاث مرات دون أن يخصه بالأشعرين اشعارا بأن القضية قضية مبدأ عام غير مخصوص بفتة معينة ولا بعصر معين.

وبذلك يتبين أن الاسلام هو أول دين أخذ قضية المعرفة أخذاً جاداً ولم يقبل في مسألة مكافحة الأمية أي تهاون أو تأخر، وهنا يتجلى حق الانسان في العلم والمعرفة والسبق الاسلامي في هذا الميدان والضمانات التي أحاط بها هذا الحق حتى لا يقع أي إخلال أو تهاون فيه.

ثم إن الاسلام اعتبره حقاً حيويًا، لا يهم الفرد الانساني وحده، ولكنه يمس الهيئة الاجتماعية كلها، ومن ثم فليس يجوز اسقاطه بالتنازل عنه او التهاون في التمتع به

(30) اخرج البخاري في الوحدان، وابن راهويه وابن السكن وابن منده، وابونعيم، وابن عساكر، والبارودي، وابن مردويه، وابن حجر وقال : قال ابن السكن : ذكره البخاري في الوحدان روى عنه حديث واحد، إسناده صالح، وقع حديثه بخراسان.

من جانب الفرد، بل يحق للضمير الجماعي أن يطالب به نيابة عن الأفراد، ورتب على الاخلال به جزاءات زجرية يمكن اللجوء اليها عند الاقتضاء.

هل للعلم حد ينتهي اليه ؟

ليس ثمة حد معين يمكن أن يقف عنده العلم ولا يتجاوزه في نظر الاسلام فحقائق الوجود والكون لا يمكن أن يحيط بها علم عالم، وحسب العلماء أن يواصلوا البحث والنظر وأن يتعدوا عن الغرور والادعاء، فصفة الكمال والاحاطة خاصة بالله سبحانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾⁽³¹⁾. ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾⁽³²⁾. وفي معنى قصور علم الانسان وإمكاناته المحدودة، يقول الله تعالى : ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾⁽³³⁾. ويقول : ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾⁽³⁴⁾. ويقول : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾⁽³⁵⁾.

ويحسن أن أشير هنا الى أن مدلول العلم في الاسلام كما تهدي اليه النصوص، الاسلامية والممارسة العملية، والتطبيق الفعلي، يمتد بحيث يشمل كل علم نافع في الدين والدنيا ولا يستثنى منه الا ما كان منه ضارا بالامة، إذ هو وحده الذي تحرمه مبادئ الشريعة ومن ثم حرم العلماء ممارسة تعلم السحر، والشعوذة والحيل، من كل ما يعكس ظلاله السلبية السيئة على حياة الناس ولا يدفع عجلة تقدمها الفكري والحضاري، على أن البعض يقول بوجوب تعلم مثل هذه العلوم أيضا إذا كان القصد من تعلمها حماية الانسان ودفع شر الدجالين عن الأمة وكشف حيلهم وإبطال أباطيلهم.

أقسام العلم

درج علماء الشريعة على تقسيم العلم المطلوب في الشرع الى قسمين : فرض عين، وفرض كفاية.

فرض العين : هو كل علم يتطلب تعلمه على جهة الوجوب بحيث يخاطب به به كل فرد على حدة ولا يعذر أحد في الجهل به، وهو كل علم يحتاج اليه الانسان

(31) المائدة، 67.

(32) الانعام، 80.

(33) الاسراء، 85.

(34) طه، 85.

(35) يوسف، 76.

في إقامة شعائر الدين واستقامة معاملته وسلوكه، ويدخل فيه تعلم أحكام العبادات والمعاملات لمن يمارسها، وفي هذا السياق ورد أن كل من اشتغل بشيء وجب عليه أن يتعلم أحكامه حتى يحمي نفسه من الوقوع في المحذور.

فرض الكفاية : هو ما كان الخطاب بشأنه موجها الى الهيئة الاجتماعية بصرف النظر عن الاشخاص، أو هو كل علم تعلقت به حاجة المجتمع، بحيث إذا اختل لا تستقيم حياة الناس، ويدخل في ذلك تعلم المهن والصناعات التي لا بد للناس منها.

قال الامام الغزالي : «أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، والحساب إذ هو ضروري في المعاملات، وقسمة الوصايا والموارث وغيرهما، وهذه في العلوم التي لو خلا البلد ممن يقوم بها، حرج أهل البلد وإذا قام بها واحد كفى، وسقط الفرض عن الآخرين، فلا يتعجب من قولنا : أن الطب والحساب من فروض الكفايات كالزراعة والحياكة والسياسة بل الحجابة والخياطة»⁽³⁶⁾.

وقال ابن عابدين : «وأما فروض الكفاية من العلم، فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب والحساب واللغة، وأصول الصناعات والزراعة كالزراعة والسياسة والحجابة»⁽³⁷⁾.

ويستخلص من هذه النقول أن المعيار في العلوم التي هي فرض كفاية هي كل ما يحتاج اليها في شؤون المجتمع من تجارة وطب واقتصاد وهندسة وكيمياء وفيزياء وكهرباء، وصناعة الأسلحة والذخائر وجميع أنواع الصناعات، وما اقتصروا عليه من ذكر الحياكة والطب والزراعة والحساب فإنما هو للتمثيل لما كانوا يحتاجون اليه في عصرهم، لا للحصر، وقد جدت حاجات لعلوم كثيرة في عصرنا هذا فتعتبر من فروض الكفاية، وكذا كل ما يجد في المستقبل من الحاجة الى علوم أخرى فإنها تعتبر من فروض الكفاية بحيث يجب على الأمة أن يكون فيها من العلماء بتلك العلوم ما يكفي لحصول الأمة على ثمار تلك العلوم، فلو كانت تحتاج في علم من العلوم الى مائة عالم مثلا، فلم يكن فيها إلا خمسون عالما، تكون الأمة آثمة حتى يوجد فيها العدد الباقي اللازم من العلماء.

(36) «الاحياء»، 16/1.

(37) «رد المحتار»، 190/1.

وما عدا هذين النوعين من العلم فهو مندوب أو مباح كتعلم ما زاد عن الفرض العين من شؤون الدين، أو تعلم ما قام به غيره من فروض الكفاية فإن ذلك مندوب، وكالتوسع في الثقافة من مختلف العلوم فإنه مباح، وإذا اقترنت به نية التقرب الى الله أو خدمة المجتمع فهو مندوب.

خلاصة ونتائج :

ويمكن أن نستخلص مما عرضناه في موضوع العلم من نصوص أن العلم في المنظور الاسلامي هو : شرف، وواجب، وحق.

أولا : العلم شرف وذلك من حيث النصوص التي تشيد بفضل العلم والاشادة بأهله.

وقد قرَّع الفقهاء على شرف العلم فروعا كثيرة نذكر منها :

- (1) قولهم في الكفاءة بين الزوجين، إن العلم والقضاء أرفع الحرف.
 - (2) وقول من اشترط الكفاءة في النسب بين الزوجين، إن شرف العلم فوق شرف النسب فالعالم كفؤ لمن هي أعلى منه نسباً.
 - (3) وقول من اشترط الكفاءة في المال بين الزوجين : أن العالم الفقير كفؤ لبنت الغني أو الغنية.
 - (4) إن من تعلم الصلاة ليعلم الناس أحكامها أفضل ممن تعلمها ليعمل بها.
- ثانيا : العلم حق : ذلك لأن الاسلام إذا كان يفرض على العالم أن يعلم، وعلى الجاهل أن يتعلم كان من الواجب على الانسان أن يسعى لتحصيل العلم، وعلى الدولة والمجتمع أن تيسر له الوصول الى هذا الحق وبهذا يكون «حق العلم» من الحقوق الطبيعية في الاسلام⁽³⁸⁾، ونجد في الفقه الاسلامي كثيرا من الأحكام التي تنبني على هذا الحق هذه امثلة منها :

- (1) للابن أن يخرج لطلب العلم المفروض ولو من غير إذن والديه، كما يخرج للجهاد المفروض من غير إذنهما كذلك بشرط أن لا يتعرض للفاقة أو الضياع بخروجه.

(38) «الأشباه والنظائر» للسيوطي.

(2) للزوجة أن تخرج بغير إذن زوجها إذا ابى زوجها أن يعلمها ما افترض الشارع عليها من علم.

(3) نفقة طالب العلم واجبة على ابيه الموسر، ولو كان الطالب قادراً على الكسب.

(4) كتب العلم لأصحابها من طلاب وعلماء هي من الحوائج الضرورية كالدار والطعام واللباس وأثاث البيت وآلة العمل، فلا تدخل قيمتها في نصاب الزكاة الواجبة.

(5) وكذلك لا تعتبر قيمتها ولو بلغت الآلاف بحيث يعتبر صاحبها ممن يجوز له أخذ الزكاة.

(6) ولا تلزمه صدقة الفطر إذا كان لا يملك غير كتبه مهما بلغت قيمتها.

(7) ولا يلزمه بيعها لأداء فريضة الحج إذا كان لا يملك من المال ما يكفي لنفقات الحج.

(8) وإذا لزمه الدين وحُكم بإفلاسه ترك للعالم كتب العلم.

قال الغزالي — رحمه الله — في حكم كتب العلم : «وحكم الكتاب حكم الثوب وأثاث البيت فإنه محتاج إليه، ثم فصل القول في ذلك فقرر أن الكتاب الذي يلزم العالم للتدريس سواء للاكتساب أو لتعليم ما هو فرض كفاية فهو من الحوائج الأصلية التي لا يستغنى عنها»⁽³⁹⁾.

وقال ابن عابدين : «في بيان أن كتب العلم للعالم من الحوائج الأصلية لأن الجهل عندهم — أي العلماء — كالهلاك»⁽⁴⁰⁾.

وغني عن البيان أن الاسلام يجعل حق العلم ثابتاً للجمع بلا استثناء بين الرجل والمرأة أو الغني والفقير أو بين ابن المدينة وبين ابن القرية فالكل في هذا الحق سواء.

أثر حق العلم في البيئة الاسلامية

كان من نتائج اقرار هذا الحق لجميع الناس في الاسلام آثار بعيدة الأثر في المجتمع الاسلامي منها :

(39) «الاحياء»، 221/1.

(40) «رد المختار» 6/2.

(1) أن العلم كان متاحا لجميع الفئات، حيث كان يبدأ من الفرد ثم يعم الأسرة، فقد جاء في الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته»⁽⁴¹⁾. ومسؤولية الرجل تشمل فيما تشمل تأديب اولاده، وتعليم زوجته وهذا هدي الى سبيل الخير والفلاح.

قال علي رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى : ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ «علموا أهليكم الخير»⁽⁴²⁾.

(2) لم يكن العلم منحصرا في فئة معينة بل كان مشاعا في المجتمع : في المسجد، وفي المدرسة، وفي الحلقات العلمية وفي المكتبات العامة فلم يعرف المجتمع الاسلامي ارستقراطية العلم كما كان محصورا في رجال الدين عند أكثر الأمم القديمة، وخاصة عند الغربيين حتى عصر النهضة.

(3) وبذلك سارت الحضارة والعلم مع الدين في ظل الاسلام حتى اعترف بعض مؤرخي الغرب بأن مدينة قرطبة في إبان ازدهارها كانت تحتوي على مليوني نسمة ليس فيهم أمي واحد⁽⁴³⁾.

وفي نفس السياق يقول غوستاف لوبون : «والانسان يقضي العجب من المهمة التي أقدم بها العرب على البحث، وإذا كانت هنالك أمم تساوت هي والعرب في ذلك فإنك لا تجد أمة فاقت العرب ... والعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا همهم الى إنشاء مسجد، وإقامة مدرسة فيها وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة هذا عن اشتغال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطيطة وقرطبة على جامعات تتوفر على مختبرات ومراصد ومكتبات عامة وكل ما يساعد على البحث العلمي، وكان للعرب في اسبانية وحدها سبعون مكتبة عامة وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني بقرطبة ستمئة الف كتاب، منها أربعة وأربعون مجلدا من الفهارس»⁽⁴⁴⁾.

ويقول مؤرخ الحضارة ول ديورانت : «وكانت في معظم المساجد مكتبات : كما كان في معظم المدن دور عامة للكتب تضم عددا كبيرا منها، وكانت مفتحة الأبواب

(41) رواه الشيخان وغيرها.

(42) رواه الحاكم.

(43) «من روائع حضارتنا»، ليوسف السباعي.

(44) «حضارة العرب»، 434.

لطلاب العلم وكان في مدينة الموصل عام 950 مكتبة عامة انشأها بعض المحسنين يجد فيها من يؤمها حاجتهم من الكتب والورق ...

وكانت مكتبة البصرة تعطي رواتب اعانات لمن يشتغلون فيها من الطلاب ولما دمر المغول بغداد كان فيها ست وثلاثون مكتبة عامة، فضلا عن عدد لا يحصى من المكتبات الخاصة، ذلك أنه كان من العادات المألوفة عند الأغنياء أن يقتني الواحد منهم مجموعة كبيرة من الكتب. ودعا سلطان بخارى طبيا مشهورا ليقم في بلاطه فأبى محتجا بأنه يحتاج الى أربعمئة جمل لينقل عليها كتبه. ولما مات الواقدي ترك وراءه ستمئة صندوق مملوءة بالكتب يحتاج كل صندوق منها الى رجلين لينقلاه، وكان عند الصاحب بن عباد من الكتب بقدر ما في دور الكتب الأوروبية مجتمعة⁽⁴⁵⁾.

(45) «قصة الحضارة» : 170/13 — 171.